القفص

بقلم : زهير البيومى

في ليلة مقمرة من ليالى الصيف ، بينما كانت الطيور تغرد على غصون الاشجار فى المزارع المجاورة لمنزل السيد / أحمد ، وبينما هو جالس على سرير المرض دخلت عليه زوجته التى كانت قد ذهبت لتعد له العشاء وقد أفصحت أساريرها عن وجود شيء ما تعانيه ، وكذلك كانت الاطباق ترتعش فى يديها ، فأسرعت بوضعها أمامه ، وجلست الى جواره مستندة برأسها الى كتفه ثم قالت وقد أجشهت بالبكاء :

ـ أحمد : فلنذهب الى ساميه كى نرى ما بها .

ورمقها أحمد من فوق نظارته بنظرة مخيفة وأخذ يتناول طعامه دون أو يرفع رأسه اليها ، بينما انسحبت هى من جواره مسرعة نحو المقعد المواجه وتكومت فيه ، وظلت صامتة لبرهة ، وفجأة تغيرت سحنتها بفعل ما كان يعمل فى نفسها من ألم وغيظ ، ثم قالت فى بطء وهى تضغط على أنيابها :

ـ رحمة بى أنتما الاثنان .. لم يكن ذنبى انى تزوجت رجلا مثلك .. وكذلك لم يكن ذنبى اننى أنجبت بنتا كهذه .

ونهض أحمد فجأة تاركا طعامه وقد علت شفتيه ابتسامة خفيفة ، وخلع نظارته ووضعها فى حافظتها ، ثم مرر يده على خديه يتحسس ذقنه ثم أخذ يتأملها فى المرآة المعلقة الى جوار الفراش كان وجهه يزداد سماحة كلما وقعت عينه على شعرة بيضاء .. ولذا كان يحاول دائما ارضاء الناس جميعا كلما أسرعت هذه الشعيرات البيض فى زحفها على خديه لتضفى عليهما ثوبا من المهابة والوقار ... ، وظل هكذا يتأمل وجهه فى المرآة ، ثم قال فجأة :

ـ سنذهب اليها .. يا نعيمة .. هيا بنا .

ونهضت الزوجة فى عجلة متجهة الى خارج الغرفة ، ولكنها وقفت فجأة لتقول فى صوت خفيض كأنها تتوسل اليه :

ـ لكن والنبى لا تشتمها يا أحمد .. انت تعرف مخها .. حتى لا تعاود الانتحار فقد لا أستطيع انقاذها فى هذه المرة .

كانت سامية تؤثر العزلة دائما خاصة بعد أن اضطرت أن ترضخ لأمر والدها لأنها كانت لا تزال قاصرا فتركت حبيبها الذى حاولت أن تتزوجه على غير رغبة من والدها ، ولذلك اتخذت من الحجرة الوحيدة التى فى الطابق العلوى مقرا لها .

وكان درج السلم الخشبى المؤدى الى

حجرة سامية يئن تحت أقدام الأم والأب الذى انحنى قليلا حتى يتفادى اصطدام رأســـه بالطابق العلوى ، ثم التفت الى زوجته التى كانت ترفل فى ثوبها الابيض الملائكى وقال وقد قطب جبينه :

ـ اننى أعرف بنتى جيدا ·· وأعرف أنه لا جدوى من مناقشتها فى هـــذا الأمر ·

ولكن الزوجة أخذت ترنو اليه بنظرة كلها استعطاف ·· ثم أخذت يده دون أن تنطق ببنت شفة الى حجرة ابنتهـا التى أسرعت تقول فى عصـــــبية وقد أجهشت بالبكاء :

ـ لمـــاذا أتيتم الى غرفتى ·· اننى لا أريدكم ، لقد حطمتمونى ·

وحاولت الأم أن تتكلم ، ولكنهـــا لم تستطع ، وأجهشت باكيـــة هى الاخرى بصوت مرتفع بينما أخذت الجدران تردد رجع نشيجها ، وقال الأب وهو يحاول جاهدا أن يرقق من خشونة صـــوته ، وأن يختار من الكلمات أعذبها وأخفهـا وقعا عملا بوصية زوجته :

ـ ما بك ·· أخبرينى يا ابنتى العزيزة ·· سامية ·· الا نستحق منك الرحمة والطاعة ·· هل هناك قلب أحنى عليك من قلب أبيك وأمك ·· انظرى الى أمك المسكينة بعين الرحمة ودعك منى أنا ·· حاولى أن تشـــعرى بما تعانيه من ألم وحسرة ، لقد أصبحت كل آمالنا فيك أنت بعد أن مات أخوك وأصبحت أنت كل ما لنا فى هذه الدنيا ·

وسكت الأب برهة ينتظر أن تعلق ابنته بكلمة ، فأخذ يعبث بذقنه ، وطال الصمت ، ولم تعلق ابنته بكلمة واحدة فخرج عن شعوره وانفجر صائحا :

ـ لقـد رفضت الزوج الطيب الذى اخترته لك ·· ولم أقل شيئا ، وتركت « القنطرة » بعد أن أصبحت سيرتنـا تلوكها ألسنة الناس جميعا ، ولم يعد لهم من قصة تشغلهم غـــير قصة ابنة « القومندان » والولد « الهلفوت » الذى أحبته وهو لم يحصل بعد على الثانوية العامة ·

قال هذه العبارة الأخيرة وكأنما حاول أن يستثير ابنته لتتكلم ·· لتقـــول شـــيئا ·· أى شىء ، ولكنها لم تفعل فاستمر يقول على غير رغبة منه :

ـ اخبرينى ما الذى تحبينه فيه ·· لتعلمى جيدا أن « لا حب بلا خبز » ·· هل يستطيع أن يوفر لك حياة كهـذه التى تحيينها الآن ، هل يســـتطيع أن يشترى لك سيارة كتلك التى جعلتهـا تحت امرتك ؟ ·· بالطبع لا ، لقـــد حاولت أن تتزوجيه وأثنيتك عن عزمك فى رفق بعد أن اقنعتك بأن القانون يقف حائلا دون مـا تريدين ·· واذا فكرت قليلا فسوف يتبين لك أن العقل يقف أيضا الى جانب القانون ·· فكرى قليلا يا ابنتى ، وادلى لنا برأيك وأخبرينـا بما تريدين ·· اللهم الا اذا كنت تريدين الذهاب الى « القنطرة » ·

وضحك الأب ، وحدثت المعجزة تكلمت سامية هذه المرة فقالت :

ـ لا شأن لك « بالقنطرة » ··· وكذلك لا شأن لك بى ، فليس بى شىء كما أنى لا أريد شيئا ·· اتركانى لحالى ·· أريد أن أنام ·

وأراد الأب أن ينهى النقاش فى هذا الموضوع بالرغم من أن ابنته لم تتنازل

عن موقفها ولم تفصح عما تريد ، وذلك لأن الليل كان قد انتصف ، ولأنه كان يعرف جيدا أن النقاش معها غير مجد كما قال لزوجته قبل أن يصعدا الى الطابق العلوى ولذا صاح بها :

ـ هيا بنا يا نعيمة ·· أقول لك هيا بنا ، هذه الفتاة ليس عندها رحمة ، وليس لديها خير فى أبيها أو أمها ، لقد سامحتها بعد أن حاولت القضاء على سمعتى حين حاولت الهرب والزواج من ذلك « الصعلوك » الذى تسميه حبيبها ··· لقد أعطيتها كل فرصة لكى تفكر ، وتكفر عن خطئها ·· لم أصبب عليها لعناتى ، ·· ولم أمنع عنها النقود كما كان يجب أن يفعل أى والد فى مكانى ، ومع ذلك فلم تنتصح ·· ولم تعتبر بل أصمت أذنيها ·· وتجردت من كل احساس بالمسئولية ·· اذن دعيها تركب رأسها ··· ولتتحمل نتائج تصرفها ·· هيا بنا · ولم يأت هذا الصياح كله بأى نتيجة ·· ولم يظفر برد من ابنته التى كانت قد أغمضت عينيها متظاهرة بالنوم ، فأخذ أحمد زوجته من يدها وأغلق الباب ، ثم أخذا يهبطان درج السلم بينما أخذت الزوجة تدفع عن نفسها تهمة تدليل ابنتها وتلقى بها على كاهل زوجها :

ـ كل ذلك من عواقب تدليل لها أيها السيد ، عودتها على مناقشتك حتى فى أدق الأمور ·· والآن تحمل عواقب تربيتك وحدك ، ولا تلق بها على كاهل الآخرين ·· لا تحاول أن تشركنى فى ذنب ارتكبته أنت ·· أى مخلوقة تعيسة أنا ·

وبكت الزوجة كثيرا وامتلأت عيناها بالدموع حتى انها لم تستطع أن تتبين موقع قدميها من درج السلم ، فانزلقت احدى قدميها ووقت الآم على الأرض ، وأسرع زوجها الكهل فحملها بين يديه وسار نحو حجرتها بينما كانت تنظر اليه خلل الدمع بعين العطف والشفقة ·

منذ ذلك اليوم كف السيد أحمد عن التحدث الى ابنته التى لم تلاحظ شيئا من ذلك ، وأن تطرق الى ذهنها فهى لا تأبه له ، فهى فى شغل شاغل عن كل شىء ·· اللهم الا ذلك الحلم المنور الذهبى الذى لا يفتأ يداعب خيالها بين الحين والآخر ·· هى لا تفكر الا فى ذلك اليوم الذى يجمعها وحبيبها ··· يوم تملك فى يدها كل زمامها فتستطيع أن تقول : « سأفعل هذا ، ولن أفعل ذلك » ، وظلت هكذا معتكفة فى حجرتها كعادتها منذ اختلفت مع والديها ، تذرع الحجرة ذهابا وجيئة أو ترقد فى سريرها ، وهى لا تكف عن البكاء وتكفكف عبراتها بالمنديل وتدعك عينيها بظهر يديها بنفس الطريقة التى كانت تتبعها حينما كانت صغيرة اذا ما كانت تريد شراء لعبة ، أما الأم الحائرة بين الوالد وابنته ، فقد نفضت يدها من هذا الأمر تماما ولزمت الصمت

وذات صباح استيقظ الأب ليجد رسالة على مكتبه بخط ابنته وأخذ ينقل ناظريه بين سطورها فى سرعة ليتبين ما فيها · ·وسرعان ما تراءت له الحقيقة واضحة جلية ··· لم يكن يخطر على باله أن هذا اليوم ·· هو يوم ميلادها الثامن عشر ·· اليوم الذى يصبح فيه من حقها أن تفعل كل ما يبدو لها ··· وأحرق الخطاب محاولة منه أن يخفى

الأمر عن زوجته التى أصبحت طريحة الفراش ، ولكن الأمر لم يكن ليخفى أبدا ، فقد أسرت الخادمة بما حدث الى الأم لم تكن تدرى ما يدور حولها بعد أن اشتد عليها المرض ٠

أما السيد أحمد فقد أبى الا أن تسير حياته فى مجراها العادى ، فكان يرتدى ملابسه فى الصباح الباكر كل يوم ليذهب الى محل عمله فى وقته المعتاد محاولة منه لان يبدو طبيعيا أمام زملائه ومرءوسيه الذين سرعان ما انتشر الخبر بينهم ، بعد أن تسرب اليهم عن طريق الخدم بعد عدة أيام ، وحاولوا أن يجدوا أثرا لذلك على وجهه أو فى صوته ، ولكن كيف السبيل الى ذلك وهو الرجل العسكرى الصلب الارادة ، القوى الشكيمة ، فلم تفصح أساريره عن شىء من مكنون صدره ، ولم يتقطب جبينه ، بل كان على العكس من ذلك تماما ٠ كان وجهه جامدا ٠٠ خلوا من كل تعبير ، كما كان صوته قويا أجش كعادته ٠٠ بل لعله كان يسعى جاهدا أن يجعله أقوى مما كان ، بينما أخذ يلقى بالأوامر يمنة ويسرة ، كان موظفو المصلحة يكرهون فيه نزوعه المستمر للجد ، وعزوفه عن المزاح والضحك ، كان جميعهم يتمنون من صميم قلوبهم أن يرونه يوما كسير النفس ، وظنوا ان اليوم قد جاء حينما سمعوا بذلك الخبر ٠٠ ولكنه خيب ظنهم ، كان يشعر بنظراتهم تزحف على وجهه ٠٠ تفتش عن أى أثر للحزن ، وتحاول أن تخترق رأسه الكبير لتقف على ما يدور فى خلده ، وتحاول أن تنفذ الى قلبه لترى ما به من اضطراب ، ولكنه كان من ذلك كله بمثابة الحصن المنيع ٠٠٠ كان يمشى كعادته منتصب القامة مرفوع الرأس ، كله كبرياء وصلف ، لم يكن يهمه فى هذه اللحظات شىء من أمر ابنته بقدر ما كان يهمه الابقاء على هيبته ووقاره أمام الموظفين ٠

وعلى هذه الحال صارت حياة السيد أحمد منذ اختفت ابنته التى لم يحاول أن يبحث عنها ، يذهب فى الصباح الى عمله ثم يعود فيلقى نظرة على زوجته المريضة ، ثم يدخل الى حجرته فلا يخرج منها الا فى الصباح التالى ، اللهم الا اذا خرج ليستقبل الطبيب الذى كان يعود زوجته المريضة لكى يعرف ما يتطلبه العلاج من دواء ٠

وذات يوم اذ هو داخل الى البيت ، تسلل الى سمعه صوت كان قد نسيه فى غمرة الذهول الذى اعتراه بعد أن هجرت ابنته البيت ، صعد أحمد الى الطابق العلوى حيث حجرة سامية حيث كان العصفوران اللذان اشترتهما لا يزالان فى قفصيهما يغنيان أغنية حزينة من كآبة البيت ٠

كان هذان العصفوران وصورتها معلقة بنفس الغرفة بالاضافة الى منديل لا تزال به آثار الدمع هى كل ما خلفت سامية من آثار ، ولكنها كانت كافية لكى تثير الشجن ، وتشيع الحزن فى البيت الصغير ٠

أخذ الأب يجيل ناظريه فى أنحاء الحجرة عن أى مخلفات أخرى ، ولكنه لم يجد شيئا ، فجعل ينظر الى القفص، وأخذ يتصور العلاقة التى قد تنشأ عن وجود هذين العصفورين فى قفص واحد ، أخذ يتصور الضوضاء التى يمكن أن تحدث فى البيت اذا ما انجبا طيورا أخرى ، وعلى الفور أمر الخادمة الصغيرة بشراء لفة من السلك من أحد المحال المجاورة ، وأخذ يصنع بها حاجزا فى منتصف القفص ، ووضع كل عصفور فى ناحية ، ثم اتجه ينظر الى صورتها المعلقة على الحائط المجاور ، فرآها غاضبة مما فعل ، وقد انتشرت البثرات فى وجهها تماما كما كان يحدث لها كلما أغضبها ، وأخذ يتطلب بعد ذلك فى احتقار الى المنضدة المجاورة حيث كان المنديل المبلل بالدمع ملقى هناك ، وقال لنفسه هكذا ستظل تبكى بقية عمرها ، ثم اتجه عائدا ادراجه ، ولكنه قبل أن يصل الى الباب تذكر انه قد رأى شيئا ما الى جوار المنديل ، وعاد فالتقط هذا الشيء ، كان هذا الشيء هو صورة ابنه الذى مات صغيرا ·· كان ضعيف البنية ضعيف البصر ، ضئيل الحجم ، ولكن عقله كان كبيرا ، ليته عاش وماتت هى ·· كان مطيعا ·· رزينا ·· لو أنه عاش فانه ما كان ليرضى عن مثل هذا التصرف الاحمق الذى اتخذته أخته ، اننى متأكد من ذلك فقد كان مثلى تماما ··· أما هى كأمها تماما بعقلها مس من الجنون اسمه الحب » ·

هكذا كان يقول الاب لنفسه حين وقع نظره على صورة ابنه الذى مات وهو لم يزل فى عمر الورد ثم تمتم وهو لم يزل فى عمر الورد ثم تمتم وهو يسير خارجا « لو أنه ظل على قيد الحياة، لما اختلف موقفه من أخته عن موقفى منها ··· أننى متأكد من ذلك ·· كان رزينا ·· رحمك الله يا بنى » ·

صار الأب يلقى نظرة كل يوم على حجرة سامية ويتأمل أحوال العصفورين اللذين خلفتهما كانت تثور ثائرته كلما رأى العصفورة تحاول أن تخترق الحاجز الفاصل بينها وبين وليفها ، ويصيح متوعدا اياها كلما رأى منها ذلك « سأمنع عنك الطعام ·· والشراب » أما هى فكانت لا تعى وعيده ، أو لعلها كانت لا تأبه له ، بينما استمرت فى عملها جاهدة تنقر السلك ، وتحاول أن تدفع بجسدها الضئيل بين فتحاته الضيقة دون أن تفكر فى جوع أو ظمأ ، ولشد ما كانت ثورة السيد أحمد حينما عاد من عمله ذات يوم ليجد الخادمة تضع الطعام والشراب للعصفورين ، وتحاول أن توسع فتحة للعصفورة لكى تنفذ الى الجانب الآخر من القفص حتى لا يتسرب الشك الى سيدها انها نقلتها مباشرة الى الناحية الاخرى ، وصاح السيد بالخادمة :

ـ أيتها الملعونة ·· تتآمرين معهم على ·· تكسرين أوامرى ·· كلكم خائنون اخرجى من بيتى ·

وأسرع الرجل بتضييق الفتحة التى كانت العصفورة تحاول التسلل منها ولكنه عاد مكتئبا فى اليوم التالى بعد أن سمع أن ابنته قد انجبت بنتا وانها سعيدة فى حياتها من الزوج الذى رفضه، ودخل على الفور ليجد العصفورين فى جهة واحدة ، ولكن كان احدهما حيا فقط أما العصفورة فقد كانت راقدة فى أسفل القفص ·· وقد ماتت بعد أن تكسر ريشها وجناحاها من الاسلاك الفاصلة بين نصفى القفص ، وتأثر السيد أحمد وأسند رأسه الى القفص وهو يبكى ، ثم اتجه الى غرفته وأخذ يكتب هذه البرقية ·

« عزيزتى سامية ·· حاولت أن أفصل العصفورين اللذين اشتريتهما ولكن العصفورة ضربت أروع مثل لى كيف يكون الحب حتى الموت ، سلامى الى زوجك وابنتك ·· انتظرانى ، سوف أحضر فى أول قطار »

وبعث السيد أحمد بهذه البرقية الى مكتب البرق ، وأخذ يعد العدة للسفر الى ابنته وزوجها ، ويرتدى ملابسه فى سرعة وبينما هو كذلك وصلته برقية مذيلة بامضاء زوج ابنته فقط أخذ يقرأها فى لهفة ولم يلبث أن خارت قواه حين وقع نظره على هذه العبارة : « عصفورتى ضربت أروع مثل فى ذلك أيضا » ·